**أدب التصوّف في المشرق والأندلس والمغرب(ابن عربي)**

النثر الصـــوفي:

سئل سمنون المحب (ت قبل 297 ﻫ) عن التصوّف فقال :"أن لا تملكَ شيئا ولا يملِكُك شيءٌ" بمعنى إيثار الآخرة على الدنيا، فالتصوف استنفار للمريد ألّا يجعل نفسَه عبدا أو مملوكا أو مستندا إلى أيّ شيء سوى اللّه، أي؛ يحرّر نفسه من الأغيارِ.

يقول أبو الحسن النوري (ت295ﻫ) :" الصوفية قومٌ صفت قلوبهم من الكدُورات البشرية وآفات النفوس وتحرّروا من شهواتهم حتّى صاروا في الصفّ الأوّل،والدرجة العليا مع الحقّ ، فلما تركوا ما سِوى الحقّ صاروا لا مالكين ولا مملوكين".

أي؛ يعتمد الطريق نحو الحقّ أساسا على النزول لأعماق القلب وما يحدث فيه من تقلّبات ومحاولة تصفيته من متعلّقاته الدنيوية والبدنية والشهوانية وتجليته باستمرار وتدريبه على تقبّل الحضور الإلهي الدائم حتى يصبح كالمرآة الصافية القادرة على امتصاص الأنوار الإلهية وتجليتها في مرآة بشرية صافية نقية طاهرة مُسالمة حكيمة.

وعن الفكرة يقول بشر بن الحارث أيضا:" التصوّف من صفا قلبه للّه" (الكلاباذي محمد،كتاب التعرف لمذاهب أهل التصوّف،ص05).

ويقول زكي مبارك عنه :" التصوف هو كل عاطفة صادقة،متينة الأواصر،قوية الأصول،لا يساورها ضعف،ولا يطمع فيها إرتيابٌ"

والتصوف عند ابن خلدون:"علم من العلوم الشرعية الحادثة في الملّة وأصله أن طريقة هؤلاءالقوم لم تزل عند سلف الأمة وكبارها من الصحابة والتابعين، ومن بعدهم طريقة الحق والهداية، وأصلها العكوف على العبادة والانقطاع إلى اللّه تعالى والإعراض عن زخرف الدنيا وزينتها والزهد فيما يُقبلُ عليه الجمهور من لذّة ومال وجاه،والانفراد عن الخلق في الخُلوة والعبادة" (ابن خلدون ،المقدمة ،دار الكتاب العربي،لبنان،ص432)

فالصوفية حسب التعريفات السابقة هم من تطهّرت أجسادهم و نفوسهم ، وتطهير الجسد من آفاته البشرية يكون بإبعاده عن النوازع البشرية التي تعُوق النفس الحالة به عن الانطلاق نحو الحقّ، وكذلك للنفس آفات ،فليست النفس بمعزلٍ عن المرض ما دامت متعلّقة بالجسم، ويُصرّ المتصوفة في مقاربتهم للتصوف على ضرورة التحرّر من الأهواء ورغبات النفس والاستعداد لتلقي الأنوار الإلهية واكتساب الصفات الرّبانية حتى يتجلى الإنسان الكامل الذي يتجلى في كلّ عصر وبشكل مختلف،وقد نشأ في بداية الأمر عند فئة مخصوصة سميّت بأهل الصّفة،وهم من فقراء المسلمين أقاموا بالقرب من مسجد الرسول وبالغوا في العبادات والزهد والبكاء،حتى صفت أنفسهم واستقامت سريرتهم وبهم اقتدى من جاء بعدهم من متصوّفة بغداد وزهاد البصرة،وبمجيء رابعة العدوّية تحولت دلالة التصوّف من العبادة والبكاء رغبة في الجنة والابتعاد عن النار إلى نوع من التصوف يقوم على عبادة الخالق لأجل ذاته ولعظيم مقامه (لا رغبة في الجنّة ولا خوفا من النار) ،فالعبادة خالصة لوجه الله ونشدان القرب هي أفضل ما لدى الصوفيّ،ثم انقلب التصوّف تحت ضغط الكون الفلسفي وترجمة الثقافات المختلفة إلى ضرب من التجسيد والحلول والفناء ،تداخلت فيه الأبعاد الإنسانية بالإلهية وتقلّصت الحدود ممّا أثار حفيظة الخلفاء والفقهاء،فتمّت محاصرته ومهاجمة أتباعه تحت ذرائع عدّة ،مما دفع بالمتصوّفة إلى اختلاق لغة خاصة بهم تحمل الكثير من الرمزية والتجريد.وعليه يمكن القول إن أغلب المتصوّفة قامت تجاربهم في الحبّ الإلهي على ضرب من الممارسة الحسّية ثم انتقلت بفعل النضج والممارسة إلى ضرب من التتبّع للجمال المطلق في الكون الذي تصبو إليه الروح وتتعلّق به، لما فيه من انفتاح وحريّة.

ماهية الأدب الصوفي:

يقوم الادب الصوفي في أساسه على محاولة المتصوّف القبض على تجربته الوجدانية العميقة في علاقته بالخالق،والعمل على صياغتها في قالب شعري –غالبا- أو نثري في بعض الأحيان، ليخرج بذلك تجربته في حلّة لغوية بارزة ،يكون فيها للاسلوب والتشكيل دورهما البارز،بحيث يخلقان إبداعات أدبية لا تقلّ نضارة ورونقا وصفاء عن تجاربه الذوقية الفذّة ، لا سيما وأنّ الأدب في بعده الجوهري - امتزاج الفكر والعواطف والخيالات والصور – هو الكفيل بنقل تجارب الصوفية التي تمتزج فيها الروح بالتخيّلات والصور والواردات والخواطر والجمال، ممّا يجعل من الادب الأداة المثلى لمخاطبة الذات المعشوقة في جمالها المطلق وتمظهرها السرمدي وعظمتها الفائقة. لذا غدت النصوصة الادبية مسرحا لا متناهيا لتمظهر الروح الصوفية في تقلّباتها وشطحاتها اللامحدودة.

فالأدب الصوفي حسب عمر فروخ هو:"فنّ من فنون الأدب كالوصف والغزل والمدح والرثاء،والأدب الصوفي مجراه الشعر في الأكثر والنثر في الاقلّ ،وهو في صورته الشعرية والنثرية فن وجدانيّ خالص" (عمر فروخ،التصوف في الإسلام،ص94)، فقد ارتبطت التجربة الصوفية بالأدب وعلِقت به فأخذت في الانتشار السريع وتوفّر لها كمّ هائل من الصوص،جعل من التجربة موطنا للبحوث والدراسات المختلفة.

ولكن طريق المتصوّفة خاص وشاق يعتمد فيه الصوفي على حواس ومدارك عدّة ؛ أساسها نداء القلب ويقظة الضمير والرقابة الدائمة والاستغراق في التأمّل وحِدّة السمع والإطراق الدائم لعوالم الروح ،والوعي المتيقّظ للحقيقة الإلهية الملْهبة للمشاعر، والاشتغال الفائق للّسان بالذكر والتسبيح ، والعزلة والصمت واستبطان الشعور، وتجاوز الظاهر نحو الباطن،وقلة النوم والطعام ،والسفر الدائم عبر بوابة أحلام اليقظة ،وتلمّس مواطن الرقّة والأنفاس العلوية كالموسيقى والطرب والانخطاف بالرقص والدوران والتصفيق والايقاع المنسجم. فحركة الجسد وليونته تسمح بسفر الروح ودورانها في الأفلاك العلوية وتحرّرها السريع من قيود الحسّ، وتدفع بها نحو ولوج الحضرة الإلهية والبهجة القُصوى.

خصائص النثر الصوفي:

على الرغم من موضوعيّ الحب وتقلّبات الروح وتجارب الصوفية قد وجد دائما فضاء واسعا في كتابات المتصوّفة،إلّا أن مناقشة طبيعة اللغة الصوفية بقي محلّ جدال كبير بين النقاد والدارسين، فاختلاف موضوع غرض الغزل عند البشر؛ بين ما هو بشري حسّي وما هو إلهي روحاني طرح في النهاية طبيعة اللغة التي يجب أن تناجي بها الروح ربّها ،هل تبقى تستمدّ موردها من اللغة البشرية العادية أو أن الأمر يتطلّب إيجاد لغة بديلة على اعتبار أنها ترتبط بتجارب غير دنيوية، بتجارب باطنية خفيّة وبمشاعر متعالية،وبمعان روحية سامية.

ما يلاحظ من خلال تتبّع كرونولوجيا النصوص الصوفية يلاحظ:

* أن هذه النصوص في البداية استثمرت معجم الغزل العذري واتخذت الكثير من رموز الشعر العذري كأدوات لمخاطبة الذات الإلهية ، كما استُخْدِم الشعر الخمري وخصائصه الفنية في التعبير عن خمرة الحب الإلهي المجردة في اتلافها للجسد وتغذيتها للروح ، في لطافتها ،في قدرتها على التغيير والتبديل، في تمكين الكائن من ولوج عوالم خفية لا مكان فيها لما هو محسوس.
* قام المتصوفة بتطوير مصطلحات خاصة بهم تراوحت بين المصطلح الفلسفي والصوفي المحض، مع الميل بالمصطلح الفلسفي نحو تغذيته بدلالات إضافية.
* استخدام بعض الكائنات والرموز الطبيعية كأدوات للتعبير عن العوالم الصوفية العميقة ،كاستخدام الفراشات للتعبير عن خفة السفر الصوفي واستخدامها للتعبير عن الطواف بالقرب من الأنوار الإلهية وللتعبير عن الرغبة في الاحتراق والفناء التام. استخدام الطيور في تنقلاتها وتبديلها للعوالم كرموز لتغير المقامات والأحوال والسياحة عبر الأوطان الروحية.
* استخدام البحر ومتعلقاته للتعبير عن عمق التجربة الصوفية واضطرابها ما بين الصحو والمحو ، اليقظة والفناء.

مظاهر الحبّ الإلهي عند المتصوفة وتمظهراته الأدبية:

إنّ السلوك الصوفي هو في أحد جوانبه حالة إلزام عملي تفرض فيها على الذات تملّصها من إنّيتها،ممّا ينتج عنها علاقة ضدّية على شكل ثنائية ، التخلّي والتجلّي ، الانفصال والاتصال ،لأن الذات تسعى إلى تدمير نفسها (التخلّي) من أجل الحصول على بدائل الذات الإلهية ( التجلّي) وهي علاقة يكشف فيها الصوفي ذاتا أخرى من طبيعة مغايرة لطبيعته فيجد صعوبة في التواصل معها لأنّها مطلقة ولا سبيل للتواصل معها أو التعبير عنها،يقول الحلّاج:

لي حبيب أزور في الخلوات \*\*\* حاضر غائب عــــن اللحظات

ما تراني أصغي إليه بسرّي \*\*\* كي أعـــي ما يقول من كلمات

كلمات من غير شكل ولا نقــ \*\*\* ط ولا مـثل نغـــمة الأصوات

فكأنّي مخاطب كنت إيـــــا \*\*\* هُ على خــاطري بـــذاتي لذاتي

حاضر غائب قريب بعــيد \*\*\* وهو لم تــحوه رســوم الصفات

هو أدنى من الضمير إلى الوهـ \*\*\* م وأخفى من لائح الخطرات

يبدو من خلال الأبيات صعوبة تواصل الصوفي مع الألوهية، فهذه الأخيرة لا تخضع لقوانين الإدراك الحسّي بل لها حضور كلّي وتجليّ في قلب الشاعر فيتشكل لديه وعي وتتحقق لديه معرفة بالألوهية دون وساطة الكلمات ، وقد ألغى الشاعر المسافة بينه وبين محبوبه ، واستخدم للتعبير عن ذلك لغة تجريدية فيها الكثير من الإيحاء والرمزية ،تتيح إمكانات ثرية للقاريء في إنشاء المعنى وتصوّره،وقد ذهب الحلاج بعيدا في مواضع أخرى ليورد اللّه في مسارات صورية مغرقة في الإطلاق ،وتجعله بمنزلة الحبيب بصور حسّية تذكّر بالحب الإنساني ، مثل قوله:

واللّه ما طلعت شمسٌ ولا غربت \*\*\* إلّا وحبّك َ مقرون ٌ بأنفاسي

ولا جلستُ إلى قومٍ أحـــــــدّثهم \*\*\* إلّا وأنت حديثي بين جُلّاسي

ولا ذكرتك مـحزونا ولا فرحا \*\*\* إلّا وأنت بقلبي بين وسواسي

ولا هممت بشرب الماء من عطشٍ \*\*\* إلّا رأيت خيالا منك في الكأس

ولو قدرتُ على الإتيانِ جئتكم \*\*\* سعيا على الوجه أو مشيا على الرّأسِ

ما لي وللنّاس كم يَلحونني سفها \*\*\* ديني لنفسي ،ودين الناس للنّاس.

أمّا عن الآداب الصوفية النثرية فهي لا تقل قيمة عن الشعر،فقد تحدّث المتصوفة فيها عن الحبّ والمعرفة الإلهية وعن الكرامات والقرب ودرجة الأنس،ومال المتصوفة في آدابهم النثرية نحو التواضع واللطف والبساطة في مخاطباتهم ونجواهم مع الخالق.

وأمّا عن موضوع التصوّف فقد ارتكز في مُجمله على مُخاطبة "الذات العليّة" وإبداء مدى حبّها وشدّة التعلّق بها ،لما فيها من خير أسمى،وجمال مطلق،ومعرفة كلّية وقدرة لامتناهية،ولأجل ذلك سعى المتصوّفة إلى إفراغ قلوبهم من الدنيا ومتعلّقاتها ،قصد احتواء أنوار الألوهية والاقتراب من ينبوعها الدائم ،هناك حيث تتقلّب الصوّر والخواطر والايماءات،وحيث تلوح خطابات شفافة ورموز كثيفة تعجز اللّغة عن مُجاراتها أو القبض عليها بعد لحظات المشاهدة والوجد العميق والانخطاف،فبعد العودة من تلك العوالم ،تلتبس الأمور بما هو حسّي فتفقد الكثير من حمولتها التجريدية ويجد الصوفي صعوبة في تنقيتها ثانية ،فيصدر خطابات غريبة فيها الكثير من اللُّبس والعجائبية.

إبن عربي التصوف:

إبن عربي: إسمه الكامل هو محمد بن علي بن محمد بن أحمد بن عبد الله الحاتمي، ولد ابن عربي سنة 1165م في 17 من رمضان سنة 560 هـ) في مُرسية، وانتقل بعدها مع عائلته في سن الثامنة إلى إشبيلية ،بعد احتلال موطن ولادته من قبل الموحدين، نشأ في بيئة علمية وثقافية غنية،درس ابن عربي القرآن والحديث والنحو والبلاغة.و في عام 1179 التقى بابن رشد في قرطبة ودرس على يديه علم اللاهوت ولكنه رفض الانتماء لهذا المجال العقائدي،وانتقل لدراسة علوم الفقه والعقيدة الإسلامية في مدن الأندلس مثل قرطبة، وكانت تلك الفترة فترة ازدهار للثقافة والفكر في الأندلس.

بدأ ابن عربي السفر في سن مبكرة، وشكّل ذلك جزءاً مهماً من مسيرته الفكرية والروحية، حيث كانت رحلاته بمثابة أسفارٍ روحية وفكرية، وأثرت بشكل كبير في كتاباته وطبيعة أفكاره.وقد أخذت رحلاته طابعين:

طابعا محلّيا وتمثلها رحلاته داخل الأندلس: حيث تنقّل ابن عربي في بداية حياته داخل مدن الأندلس و درس على أيدي كبار العلماء والمفكرين في مدن شتّى؛ منها قرطبة و إشبيلية وغرناطة ، وبعدها تملّكه شوقٌ كبير لاكتشاف دوائر أوسع من دائرته المحلية فامتدّ بصره نحو المشرق،حيث الإشراق والأنوار الروحانية، بدأ في رحلاته إلى المشرق عبر مَضيق جبل طارق وواصل الرحلة في مدن شمال أفريقيا، هذه الرحلات الروحية سمحت له بالتعرّف على المشايخ المعروفين في ذلك الوقت بالشيخ المهدوي في تونس عام 1193م ، وكانت له مؤلفات أصبحت فيما بعد مراجعا في الأدب الصوفي مثل: روح القدس (تونس)، كتاب الرحلة الليلية (فاس) وإنتاج الكرات (تونس 1201) الذي فيه إشارات للدوائر الروحية والكمال الإلهي،، وتحقيق تطور روحي مثل الصعود الليلي (عام 1195 بفاس) وصولاً إلى المحطة الأعلى (مراكش 1200) بل وتلقى الوحي الإلهي مما جعله خاتما القداسة المحمدية

ملاحظة هناك تكملة للمحاضرة.

المراجع: معجم لسان العرب لابن منظور.

معجم الصحاح للجوهري.

كتاب: شعر التجديد في القرن الثاني الهجري لحافظ الرقيق.

التصوف الإسلامي في الأدب والأخلاق لزكي مبارك